



سيبقى الجدل واسعاً في النظر إلى العلماء ومستمراً يتارجح كبندول بين الإفراط والتغريط؛ فهناك من ينظر إلى العالم على أنه ملأ منزل من السماء، وهناك من ينظر إليه على أنه شيطان رجيم، وفي الحالتين هم يخرجونه عن إنسانيته؛ فهو بشر يخطئ ويصيب، وهذا كان الخالق - سبحانه - يربى محمداً - صلى الله عليه وسلم - بقوله في غير آية (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى) [الكهف: 110].

ولهذا تقرر نفي العصمة عن العلماء ولكنه يبقى أنهم أحق بالهداية ومعرفة حكم الشرع من كل من خالفهم، ولن يكون مخالفوهم أولى بالحق منهم. وكما هو الحال فقد اعتادت المجالس اليمنية أن الكل فيها يناقش والكل يحلل ويشارك في الحديث وفي كل شيء وفي جميع المجالات، وعندما كنا نتناقش في أحد المجالس عن الأوضاع وما آلت إليه البلداناليوم خصوصاً العربية، أثار فضولي أحد المشاركين عندما أرجع أسباب المشكلة إلى العلماء (ويعني بذلك علماء الشريعة)، وهذا ما جعلني أتذكر سؤالاً وجهاً إلى في 9/9/2014م على الفضائية اليمنية في برنامج "شؤون البلد" وهو: ما هو دور العلماء في ظل هذه الأوضاع التي تعيشها البلد؟

طبعاً وفي مثل هذا ظروف تصعب الإجابة على هذا السؤال دون ذكر توطئة ومقدمة توضح فيها ملابسات القضية؛ فالعلماء موجودون بل إن بقاء خيرية هذه الأمة التي أخبر عنها الخالق جل في علاه بقوله (كُنُتمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) [آل عمران: 110] مرتبطة بهم.

وبما أن السياق له دور كبير في فهم النص فإننا نجد عند مواصلة قراءة الآية أنه بين سبب الخيرية بوظيفة العلماء وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبناءً عليه فإنه لا يخلو زمان من قائل بالحق وامر بالمعروف وناء عن المنكر، ولكن مع اختلاف المُكَنَّةِ في تبليغ الحق، وبرأيي أن هناك عدة عوامل مشتركة أدت إلى تهميش دور العلماء وليس إلى غيابه لأنه في الحقيقة موجود ولكن هناك تهميش متعمد، وهي كالتالي:

العلماء وحدهم من يرون الفتنة وهي مقبلة فيحدّرُون الناس منها ويعلمونهم سُبُل الوقاية منها والتعامل معها، والجاهلون يرونها وهي مدبرة بعد أن تنزل عليهم بكلّها فتطحّنهم وتمزقّهم تمزيقاً، وفي هذا الوقت أيضاً يبرز دور العلماء عندما يشبّ لهيب الحروب العبثية ويستهان بالدماء وكذلك الحروب النفسية والإعلامية والحروب الاقتصادية ويصيب الناس الخوفُ وسيطر عليهم القلقُ ويشعرون بالوحشة، يتصرّد العلماء الموقف بالوعظ والإصلاح ولم الشمل وتضميد الجراح حتى يذهب رَوْع الناس، ولذلك يقول ابن القيم رحمه الله: كنا إذا ضاقت بنا الأرض، وضاقت علينا أنفسنا، وساقت بنا الظنون، نذهب إليه إلى شيخ الإسلام ابن تيمية، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك عنا.

ولا شك أننا اليوم نعاني من التجهيل المتعمد الذي يغزو الشعوب ويفتك بها؛ حيث صار له دور بارز في تهميش العلماء والمفكرين وأصبحنا نجد كثيراً من رفعوا عن أنفسهم أمية القراءة والكتابة فقط وهم الغالبية ويمثلون الحاضنة الشعبية التي تلتّف وراء العلماء كما قد كان في عهد سلطان العلماء العز بن عبد السلام، غير أن هؤلاء سيظلون كريشة في مهب الريح ولا يمكن أن نصفهم إلا بالقشة التي تقاذفها الأمواج يمنة ويسرة وهؤلاء دائماً كفتهم ترجع لمصلحة الأقوى، ولا شك أننا اليوم نعيش مرحلة استثنائية يُستضعف فيها أهل الحق وفي مقدمتهم العلماء.

وفي المقابل فكما أن الجهل يعمل على تقويض دور العلماء فإنه يقوم بتغذية عكسية لأنظمة البوليسية، وهذا ما نجحت به أنظمة القمع العربية، لذلك لا تستغرب إذا لمسنا ضعفاً في المؤسسات التعليمية والبحثية وقوة في الشرط والمعسكرات والسجون والمعدات القتالية، قال الأديب الفرنسي فيكتور هوجو "من يفتح باب مدرسة يغلق باب سجن".

أنظمة الحكم استطاعة:

تستطيع الأنظمة الوظيفية بما تملك من إعلام وثروة ومكانة أن تجعل من أنظمتها أمراً مقدساً لا يمكن المساس به أو التقدم عليه وسعت جاهدة حتى تبقى هذه الذهنية مرسومة في عقول الشعوب، ولم يتوقف الأمر عند ذلك حتى صار الحاكم هو البوصلة التي يقاس بها التوجّه الصحيح لمسار الأمة، وهذا ما يجعلهم يشتّرطون لإشادة بالعلماء والثناء عليهم ومدحهم هو مدى موافقتهم للحاكم فإذا ما خالفوه بأمر أو قضية صبوا جام غضبهم عليهم وأوسعواهم سباً وشتماً دون ورع ولا رؤية، وزحّزة العلماء واحتلال مكانتهم يعد نجاحاً بالنسبة للحاكم؛ ذلك أنه أصبح يضيف إلى سلطاته مهمة عظيمة وهي الدعوة إلى الله بالحكمة والمواعظ الحسنة والمجادلة والتي هي أحسن طبعاً، وهذه الدعوة على طريقته هو وبما يتنااسب مع الحفاظ على ملكه وسلطانه، إذاً الحاكم اليوم هو من يشرع ومن يأمر وينهى...!

ومن طريف ما يذكر عن العلامة القاضي محمد بن إسماعيل العمراني أنه خرج ذات يوم فقال له طلابه: إلى أين؟ فقال: معنا محاشرة عند الرئيس.

وبالفعل كان الرئيس يجمع العلماء ويجتمع بهم لا ليسمع منهم النصائح والتوجيه ولكن ليحدثهم هو عن إنجازاته وإعطائهم بعض التوجيهات ثم ينصرفون إلى ديارهم وطلابهم في المساجد والmarkets لتصبح دعوتهم حكراً عليها فقط، أما أمر السياسة والعلامة فقد أوكلوه إلى الحاكم لا شريك له في ذلك، وهذا ما يجعلني لا أستغرب إن قال لي أحدهم: العالم الفلانى عالم جليل وفاضل وبحر من العلوم لكنه سقط من أعيننا وأعين الناس لأنه يوافق الرئيس في الموقف الفلانى.

العلماء الذين أفرزتهم الأنظمة الحاكمة:

عند سبر أغوار الشعوب والمجتمعات - لا سيما الإسلامية منها - نجد أن ثمة عاطفةً جياشةً وعلاقة قوية ومتينة بين السماء

ممثلة بالأديان السماوية والتشريع والعلماء وبين الأرض ممثلة بالشعوب والمجتمعات، ولا يمكن لمن يريد أن يمسك بزمام الأمور أن يفصل بينهما، لأنهما بمثابة الخطام الذي تُجَرَّ به الناقفة، وعندما يكون الطغيان هو المسيطر في أي نظام فمن الطبيعي أن يفترق السلطان والقرآن كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، ولكي يبقى السلطان ممسكاً بالخطام لجر الشعوب فلا بد من أن يشبع فيهم هذه الرغبة الجبارة في الناس، وعندما سيد نفسه مضطراً لاتخاذ علماء وخطباء ووعاظٍ ومرشدین يسبحون بحمده ويدورون في فلكه، وهؤلاء قدّمأ كانوا يسمون بعلماء السلطان سواء كانوا بقصد أو بغير قصد لأن بعضهم يستغلون وتقدّم لهم المصلحة كطعم لجرهم إلى صف السلطان وهم لا يعلمون أنهم يحدثون انفصاماً بينهم وبين حاضنتهم الشعبية من جمهور الناس، وقد كان أصحاب الجرح والتعديل من العلماء لا يقبلون حديث من يتردد على السلطان لأنهم يحطون من قدر العلماء الربانيين وغيرهم، وقال الشيخ محمد رشيد رضا -رحمه الله- : واعلم أنه لا مفسدة أضر على الدين وأبعد على إضاعة الكتاب ونبذه وراء الظهر واشتراء ثمن قليل به من جعل أرزاق العلماء ورتبتهم في أيدي الأئمة والحكام، فيجب أن يكون علماء الدين مستقلين تمام الاستقلال دون الحكم -لا سيما المستبدین منهم-. وإنني لا أعقل معنىًّا لجعل الرتب العلمية ومعايش العلماء في أيدي السلاطين والأئمة إلا جعل هذه السلسل الذهبية أغلاً في أنفاسهم يقودونهم بها إلى حيث شاؤوا من غشن العامة باسم الدين وجعلها مستعبدة لهؤلاء المستبدین، ولو عقلت العامة لما وثقـت بقول ولا فتوى من عالم رسمي مطوق بتلك السلسل على أنه صار بعد ذلك من حملة هاتيك الأوراق، والمترzinين بتلك الكساوي الموشأة والمتخلين بتلك الأوسمة البراقة الذين يسبحون بحمد السلطان معطيها بكرة وأصيلاً، ويضللـون من طلب إصلاح حال الدولة تضليلًا؟ فهل يوثقـ بعلم عالم مقرب من المستبدین أو بيـنه؟

إن علماء السلف كانوا يهربون من قرب الأئمة المستبدین أشد مما يهربون من الحيات والعقارب.

المشاريع الهدامة في المنطقة:

الديمقراطية والعلمانية والليبرالية والاشتراكية والزنادقة والملحدون والفرق الضالة جميعهم يدركون أن العلماء هم من يعلمون الناس الدين وهو حراسه وأنهم الصخرة التي تحطم عليها كل مشاريعهم وجهودهم لا فساد الدين وأضلال المسلمين. ولذلك يسعون جاهدين للحط من قدر العلماء ابتداءً من تسويتهم بغيرهم من العامة ورعاـع الناس وانتهاءً بفتح العنان كل أحد وإعطائه حق الاجتهاد والتصـرف والفتـيا والتشـريع والمشاركة في تحـديد الأمـور المصـيرـية، وهذا أـستـدلـ بكلـامـ الدكتور محمد بن موسى العـامـريـ مستـشارـ رئيسـ الجمهـوريـ وزـيرـ الدـولـةـ وـعضوـ الحـوارـ الوـطـنـيـ"ـ كـناـ فيـ الحـوارـ الوـطـنـيـ فيـ أمـورـ الـاقـتصـادـ وـالـسيـاسـةـ وـالـعـسـكـرـيـةـ وـالـدـسـتـورـيـةـ وـالـاجـتمـاعـيـةـ وـالـثـقـافـيـةـ وـالـأـمـورـ الدـبـلـوـمـاـسـيـةـ لاـ يـتـكـلـمـ أحدـ أوـ يـشـارـكـ فيـ هـذـهـ الأمـورـ وـلاـ بـدـ منـ تـرـكـهاـ لـمـتـخـصـصـيـنـ فـيـهاـ وـلـكـ إـذـاـ صـارـ الـحـدـيـثـ عـنـ الـدـيـنـ وـالـشـرـيـعـةـ يـشـارـكـ الجـمـيعـ وـلـاـ يـنـظـرـ فـيـهاـ أـوـ يـعـطـيـ حتىـ اعتـبارـاـ لـمـتـخـصـصـيـنـ بـالـشـرـيـعـةـ".

وفي ظل النظام الديمقراطي صعد الجاهلون إلى المجلس التشريعي، ويدرك أـيـضاـ عن العـلـامـ القـاضـيـ العـمـرـانـيـ وقدـ كانـ عـضـواـ فـيـ المـجـلـسـ التـشـريـعـيـ أـنـهـ فـيـ إـحـدـىـ الجـلـسـاتـ كـانـ مـنـ ضـمـنـ الـذـيـنـ سـجـلـواـ أـسـمـاءـهـ لـلـحـدـيـثـ وـلـمـ دـخـلـ المـجـلـسـ سـمـعـ اـثـنـيـنـ مـنـ الـأـعـضـاءـ يـتـحـدـثـونـ قـبـلـهـ عـنـ الـرـبـاـ وـالـبـنـوـكـ وـكـثـيرـ مـنـ الـأـمـورـ الشـرـعـيـةـ دـوـنـ عـلـمـ وـفـقـهـ، فـلـمـ وـصـلـ الدـوـرـ لـلـقـاضـيـ العـمـرـانـيـ رـفـضـ أـنـ يـتـحـدـثـ وـقـالـ سـاخـرـاـ:ـ الـحـدـيـثـ الـيـوـمـ لـابـنـ كـثـيرـ وـلـابـنـ حـجـرـ.

وهي رسالة منه إلى أـنـاـ صـرـنـاـ فـيـ زـمـنـ الـرـوـبـيـضـاتـ الـذـيـنـ يـتـحـدـثـونـ وـيـحـدـدـونـ مـصـيرـ الـأـمـةـ فـيـ حـضـرـةـ الـكـبـارـ وـالـعـلـمـاءـ.ـ وـلـاـ شـكـ أـنـ هـذـاـ يـحـطـ مـنـ قـدـرـ الـعـلـمـاءـ وـيـسـهـمـ فـيـ زـعـزـعـةـ الثـقـةـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ الـحـاضـنـةـ الشـعـبـيـةـ مـنـ جـمـهـورـ الـنـاسـ وـعـامـتـهـمـ،ـ لـذـكـ تـسـتـمـرـ الـحـمـلـاتـ التـغـرـيبـيـةـ وـالـصـلـيـبيـةـ فـيـ هـذـاـ المـجـالـ،ـ وـفـيـ هـذـاـ تـحـدـثـ الـأـقـدـمـونـ،ـ حـيـثـ قـالـ إـلـمـامـ أـحـمـدـ بـنـ حـنـبلـ فـيـ خـطـبـتـهـ

المشهورة في كتابه في الرد على الزنادقة والجهمية: (الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقایا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويُحييون بكتاب الله تعالى الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحياه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس وما أقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقو عنان الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون لكتاب، مجتمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم؛ فنعود بالله من فتنة المضللين).

مجلة البيان

المصادر: